- أ/د. موسى شروانة.

- الأولى ليسانس.

- جذع مشترك.

- البلاغة العربية .

- محاضرة.

- مجموعة:(3)

محاضرات في البلاغة العربية
للمجموعة الثالثة(مج03).

فـــهرس المحتـــوى.

1- مفهوم البلاغة.
2- مفهوم الفصاحة.
3- الغاية من دراسة البلاغة.
4- نشأة البلاغة العربية وتطورها.
5- مفاهيم علوم البلاغة الثلاثة وقضاياها.
6- التقديم والتأخير.
7- الحقيقة والمجاز.
8- الصورة الفنية.

1- مـــــفهوم البـــــــلاغة

تمهيد: إشكالية مفهوم المصطلح.

للتعرف على المفهوم الاصطلاحي للبلاغة أو لما تعنيه هذه الكلمة في الاصطلاح، فإنه من الضروري الإشارة إلى أن التعرف على هذا المصطلح ليس بالأمر السهل؛ لأن الدارس أو الباحث عن مفهومه تقابله فيه صعوبات عديدة. ومرد ذلك إلى جملة من الأسباب، وفي مقدمة هذه الأسباب أن هذا المصطلح قد عرف في نشأته وتطوره الكثير من الاجتهادات والتفسيرات في تحديد مفهومه،وكثيرا ما حملت هذه الاجتهادات والتفسيرات رؤية أصحابه وهي رؤى ذاتية ينقصها الرصد الشامل والدقيق لمعطيات المادة الاصطلاحية ثم القيام بتحليلها وهو ما يجعلها في النهاية غير تامة ونتائجها غير ملزمة للجميع باعتبارها غير دقيقة وغير موحدة لآرائهم ومنطلقاتهم الفكرية والفنية في كثير من الأحيان. فعلى سبيل المثال لو بحثنا عن هذا المفهوم في أشهر المعاجم القديمة وهو لسان العرب لابن منظور لما وجدنا فيه ما يقودنا إلى مفهوم واضح ودقيق له من ذلك أننا وجدنا مصطلح البلاغة مرادفا للفصاحة،والفصاحة ذاتها مرادفة للبيان،وهكذا الأمر في كثير من المعاجم والمراجع. وعلى هذا فإن ما نسعى أن نقدمه عن مفهوم هذا المصطلح لا يعدو أن يكون محاولة للاقتراب منه لصعوبته وتشعب مسالكه. ولعل البداية المناسبة للاقتراب التدريجي من هذا المفهوم هي المفهوم اللغوي ثم المفهوم الاصطلاحي.

أ- المفهوم اللغوي:

عندما نعود للمعاجم اللغوية للتعرف على المفهوم اللغوي لكلمة البلاغة في مادتها الثلاثية (بلغ) فإننا نجد لها العديد من الاشتقاقات،وكل اشتقاق له دلالته الخاصة به، ولكن مجمل هذه الاشتقاقات تشترك في الدلالة على بلوغ منتهى الشيء والوصول إلى غايته كما في قولهم:

" بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلغتها غيري، ومبلغ الشيء منتهاه والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته".

ب- المفهوم الاصطلاحي:

استخدم مصطلح البلاغة في التراث البلاغي بأكثر من دلالة واحدة وما كانت الضرورة تدعو إلى أن يستخدم بأكثر من ذلك؛ لأن هذا الاستخدام مخالف لطبيعة المصطلح ولطريقة التعامل به في عملية التواصل كما سبقت الإشارة إلى ذلك،ومع هذا فقد وجد هذا المصطلح وتم التعامل معه على النحو الذي جاء به، وينبغي قبوله والنظر إليه في ضوء الظروف الفكرية والفنية التي أملته في نشأته وتطوره، وبالرغم من هذا التعدد في الاستخدام للمصطلح بأكثر من دلالة واحدة وصعوبة رصده وتحليله بشكل كامل، فقد أمكن في النهاية حصره في مفهومين:

الأول جاء بمعنى فن الكلام وطريقة أدائه ومن الأمثلة عليه قولهم البلاغة هي:

1- الفهم والإفهام.
2- لمحة دالة.
3- شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا.
4- الإيجاز.
5- الإيجاز في غير عجز والإطناب في غير خطل.
6- الإيجاز:والإيجاز هو أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ.
7- مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته.
8-"هي كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن، وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة، لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة ومعرضه خلقا لم يسم بليغا، وإن كان مفهوم المعنى، مكشوف المغزى. ومن قال: إن البلاغة إنما هي إفهام المعنى فقط جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة سواء".

وجميع ما ذكر من مفاهيم لمصطلح البلاغة رغم ما يلاحظ على تفاوته في الطول والقصر،وفيما تضمنه بعضها من شروط ،يدل على فن الكلام وطريقة أدائه وتوصيله إلى المتلقي ليفهمه ويترسخ في وعيه شريطة أن يكون في صورة حسنة أو صورة مقبولة كما في المفهوم الأخير مع السلامة اللغوية ومراعاة قواعد النطق.

الثاني بمعنى(العلم)والمقصود به العلم الذي يُلم بمباحث البلاغة وأصولها وتقنياتها في التعبير والأداء ولهذا قسمت البلاغة إلى ثلاثة علوم فرعية هي:

- علم المعاني.
- علم البيان.
- علم البديع.

وذلك على نحو ما جاء عند البلاغيين الكبار مثل أبي يعقوب السكاكي (ت626هـ) في كتابه(مفتاح العلوم)والقزويني(ت739هـ)في كتابه(الإيضاح) وغيرهما من علماء البلاغة.

وعلى العموم فإن الاستخدام الشائع لهذا المصطلح ينصرف في دلالته إلى العلم الذي يدرس أصول فن الكلام أو فن القول بوجه عام والإلمام بمباحثه وطرق التعبير فيه.وهذا هو المفهوم الذي نتداوله اليوم حين نتحدث عن البلاغة العربية في الفكر البلاغي عند العرب.

2- مفـــــهوم الفصاحـــــــة

- مفهوم الفصاحة:

تمهيد:

لا يكتمل الحديث عن مفهوم البلاغة إلا بالحديث كذلك عن مفهوم الفصاحة لأنهما مرتبطان ببعضهما ارتباطا وثيقا ولهذا حرص رجال البلاغة من القدماء على عدم الفصل بينهما والدليل على أن مفهوم البلاغة عندهم لا ينفصل عن مفهوم الفصاحة هو قولهم في أشهر تعريف للبلاغة:

" البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته".

فالفصاحة في هذا التعريف جزء من البلاغة وهو ليس جزءا ثانويا يمكن الاستغناء عنه بل هو جزء أساسي فيها ولذلك ختم التعريف بالقول(مع فصاحته)؛ لأنه يجوز أن يتطابق الكلام مع ما يتطلبه المقام ولا يكون فصيحا وبذلك تنتفي فيه صفة المطابقة. ومن هذا يتضح لنا أن مفهوم البلاغة عندهم أوسع وأشمل من الفصاحة.

أ- المفهوم اللغوي:

تنحدر كلمة الفصاحة من المادة الثلاثية (فَصُحَ) ومعناها في اللغة الظهور والبيان بشكل عام كما جاء في المعاجم اللغوية التي عرضت لهذه الكلمة، وهذا يشير إلى أن الشيء الذي لا يكون واضحا وجليا لا يستحق أن يوصف بأنه فصيح، ومن الأمثلة التي تساق في هذا المعنى على الفصاحة قولهم:" فَصُحَ اللبنُ إذا انجلتْ رغوتُه".وفي هذا قال الشاعر:

"وتحت الرغوة اللبن الفصيح".

ب- المفهوم الاصطلاحي:

توجد علاقة بين المفهوم اللغوي والاصطلاحي للفصاحة، وهي تبدو في المشابهة.فإذا كانت الفصاحة في اللغة تعني الظهور والبيان بشكل عام،فإن الفصاحة في الاصطلاح تعني أن تكون الألفاظ خالية من أي عيب أو نقص سواء

من حيث تركيب الحروف أم من حيث غرابة المعنى أم من حيث عدم مراعاة قواعد اللغة؛لأن عدم خلوها من هذه العيوب يجعلها أشبه ما تكون بالرغوة التي تعلو اللبن. و أشهر هذه العيوب هي:

1- تنافر الحروف:

وهي أن تكون الكلمة ثقيلة في النطق مثال على ذلك: " أن أعربيا سئل عن بقرته فقال: تركتها ترعى (الهُعْخُع)وهو اسم نبات يأكله البقر".

2- الغرابة:

وهي آلا تكون الكلمة غريبة أو وحشية حتى لا تدعو الحاجة إلى البحث عنها في المعاجم اللغوية، كما روي عن عيسى بن عمر أنه سقط عن حماره فأجتمع عليه الناس فقال:"مالكم تَكَأْكَأْتُم عليَّ تكأكؤكم على ذي جنة افرنقعوا عني؟".

ففي هذا المثال توجد كلمتان غريبتان هما(تكأكأتم)و(افرنقعوا) وكانتا سببا في تعجب الناس واندهاشهم لعدم فهمهم ما قاله.

3- مخالفة القياس:

وهي أن تكون الكلمة جارية على غير ما هو معروف في قواعد اللغة كما هو في قول أحدهم: " الحمد لله الأجلل".

فكلمة (الأجْلَلِ) فُكَّ إدغامُها وكان يجب أن تكون (الأّجلِّ) بعدم فك الإدغام.

هذه بعض العيوب التي تنفي الفصاحة عن الألفاظ.

أما الفرق بين الفصاحة والبلاغة فقد أوضحه ابن سنان الخفاجي(ت466هـ) في كتابه(سر الفصاحة)بقوله:

"والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني، لا يقال عن كلمة واحدة لا تدل على معنى يَفْضُل عن مثلها، بليغة، وإن قيل فيها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا".

- **الفصاحة**
  - **المفهوم اللغوي.**
  - **المفهوم م الاصطلاحي.**
- **خلو فصاحة اللفظ من:**
  - **تنافر الحروف**
  - **غرابة المعنى.**
  - **مخالفة القياس.**

- **العلاقة بين الفصاحة والبلاغة هي علاقة الجزء بالكل.**
- **الفصاحة لوصف الألفاظ ←فصاحة اللفظ المفرد.**
- **البلاغة لوصف الألفاظ مع المعاني ←كل بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا.**

3-الغاية من دراسة البلاغة

- الغاية من دراسة البلاغة العربية

تمهيد:

لكل مادة دراسية مقررة في البرنامج صلة بالأهداف التي يراد تحقيقها فزيادة على أن هذه المادة أساسية في التكوين والتحصيل العلمي للحصول على شهادة جامعية، فإن هناك غايات أخرى كثيرة من وراء وضع هذه المادة ضمن البرنامج العام. ولسنا هنا بصدد إحصاء كل الغايات التي يراد تحقيقها من هذه المادة ولكن للزيادة فقط في تعميق الوعي بهذه الغايات نكتفي بالإشارة إلى بعضها في الآتي:

1- تدخل دراسة هذه المادة في إطار الاهتمام بتراثنا الأدبي والفكري، ومن شأن هذا الاهتمام أن توثق صلتنا به ليزداد التعرف عليه، وتعميق الوعي به،وفي هذا تحقيق لفكرة التواصل بين الماضي والحاضر.

2-التمكين من الوعي بأساليب القدماء والوقوف على مختلف الأدوات والوسائل التعبيرية التي كانوا يستعملونها في كتاباتهم، وفي فنهم الأدبي الرفيع شعرا ونثرا. وليس هذا لغرض محاكاتهم له أو النسج على منواله جملة وتفصيلا ولكن لاكتساب معارف جديدة وخبرة في استخدام الأساليب الراقية.

3- ولما كانت سنة الحياة تقتضي التغير والتطور، فإن قدرا من هذا التغير والتطور قد حصل في أدواتهم ووسائلهم التعبيرية والفنية عبر المراحل والأطوار التاريخية.ولاشك في أن دراستنا لها تجعلنا نقف على مختلف القيم الفنية الثابتة والمتغيرة في تاريخ فكرهم البلاغي.

4- إلى جانب هذا فإنها تقدم فائدة مزدوجة على مستوى الإبداع،وعلى مستوى النقد. فعلى مستوى الإبداع فهي تمكن الأديب المنشئ من تطوير أدواته التعبيرية من خلال معرفته لكل أساليب التعبير التي عرفها القدماء. أما على مستوى النقد - للبلاغة علاقة بالنقد- فهي تزود الناقد بحصيلة هامة من المعارف والمفاهيم والقواعد وتبصره بجماليات الأسلوب بمختلف أنواعه وأشكاله لتمكينه في النهاية من دراسة الأعمال الأدبية والكشف عن قيمها الجمالية.

4- نشأة البلاغة العربية وتطورها

- نشأة البلاغة وتطورها

تمهيد:

الأدب كفن عادة ما يسبق القواعد والأسس التي يقوم عليها. ولا يعني هذا أن الأدب كفن ليس له قواعد وأسس ولكن هذه القواعد والأسس تأتي لاحقة له في الوجود،وهي في العادة تكتشف من خلاله بعد الفحص والاستقراء الشامل والدليل على ذلك أن العروض العربي - وهو ميزان الشعر- لم يكتشف إلا في القرن الثاني للهجرة بعد ما قام الخليل بن أحمد(ت175هـ) باستقراء الشعر الذي سبق عصره، واستخرج منه ما عرف بأوزان الشعر أو بحوره. ومعنى هذا أن فن الشعر كان سابقا واكتشاف قواعده الإيقاعية جاء لاحقا.وكذلك الأمر في البلاغة العربية كقواعد وأصول فإن الدارس لها يجد أنها تأخرت كثيرا في ظهورها بالقياس إلى التراث الأدبي الذي وصلنا من الشعر والنثر عن العرب في الجاهلية.ربما كانت هناك ملاحظات قليلة رافقت هذا الأدب خلال مراحله ولكن هذه الملاحظات لا تخلق نظرية أو ما يشبه النظرية للكتابة، ويعود هذا التأخر إلى جملة من الأسباب:

1- أن العربي في الجاهلية وما بعدها لم يكن في حاجة إلى أن يتعلم قواعد الكلام أو أسس الكتابة لأنه يملك القدرة على أن يقول الشعر دون تعلم وكذلك الحال مع المستمع أو المتلقي فهو يتلقى الكلام على نحو طبيعي كما تعود عليه ولم يكن في حاجة إلى معرفة قواعده مثل معرفة الفاعل والمفعول أو المبتدأ والخبر أو أنماط الجملة ومكوناتها في النحو، كما لم يكن في حاجة إلي أصول البلاغة وأسرار أساليب التعبير من تقديم وتأخير وحذف وذكر أو تشبيه واستعارة وما إلى ذلك. فهده الأساليب وغيرها جاءت متأخرة غير أن عدم معرفته لها كتقنيات في التعبير أو كمصطلحات لا يعني أنه لا يدرك قيمتها حين تأتي متضمنة في الكلام بل كان يدركها بفطرته عن طريق الإدراك التلقائي أو عن طريق الممارسة الإبداعية.

2- كان هذا الأمر سائدا قبل الإسلام، وحين جاء القرآن الكريم انبهر الناس به وبما فيه من أساليب جديدة دفعتهم إلى معرفتها والوقوف على أسرار الجمال فيها. وهنا وجدنا محاولات لتفسير القرآن الكريم وكان هذا التفسير من العوامل البارزة في نشأة المباحث البلاغية ووضع المصطلحات ومحاولة تحديد مفاهيمها. ومن أبرز ما بدأ به البحث هو معرفة أسرار الإعجاز فيه،هل يعود ذلك إلي اللفظ أم إلى المعنى أم إليهما معا؟.

ويعتبر القرن الثاني الهجري البداية الأولى لهذه المحاولات نذكر منها على سبيل المثال:

- مجاز القرآن لأبي عبيدة(ت213هـ).
- معاني القرآن للفراء(ت207هـ).
- معاني القرآن للأخفش سعيد بن مسعدة(ت215هـ).

ومع توالي القرون والعصور تعمق البحث في أسرار إعجاز القرآن وتعددت ميادينه وقضاياه على أيدي علماء البلاغة، منهم عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) في كتابه الشهير:(دلائل الإعجاز)،والزمخشري(ت538هـ) في كتابه(الكشاف).

وإلى جانب هذا الاهتمام بالقرآن الكريم، هناك اهتمام آخر مصاحب له وهو يتمثل في البحث في فن القول بوجه عام سواء أكان شعرا أم نثرا لمعرفة الأسرار البلاغية الكامنة فيه من جهة،ووضع القواعد التي تضبطه من جهة أخرى كما في الكتب الآتية على سبيل المثال:

- **البيان والتبيين للجاحظ(ت255هـ).**
- **قواعد الشعر لأبي العباس ثعلب(ت291هـ).**
- **عيار الشعر لابن طباطبا العلوي(322هـ).**
- **نقد الشعر لقدامة بن جعفر(ت336هـ).**
- **كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري(ت395هـ).**
- **سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي(ت466هـ).**

وقد أسفر هذا وغيره عن تراث ضخم ساعد على تبلور البلاغة العربية واستقلالها في نهاية الأمر كعلم له أصوله وقواعده الخاصة في القرن السابع الهجري على يد أبي يعقوب السكاكي(ت626هـ)من خلال كتابه (مفتاح العلوم) ولعلم البلاغة في هذا الكتاب ثلاثة علوم أخرى فرعية هي: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

5- مفاهيم علوم البلاغة الثلاثة وقضاياها

- مفاهيم علوم البلاغة الثلاثة وقضاياها:

لقد وضع العلماء السابقون للبلاغة تعريفا لكل علم من هذه العلوم الثلاثة إلى جانب التعريفات الفرعية للقضايا البلاغية التي تندرج تحته.

فعلم المعاني يدرس أسلوب الكلام، ويتتبع خواص تراكبية، ويحاول أن يكشف عن الدلالة النفسية التي يحملها في ذاته كما جاء في تعريفه على هذا النحو:

"هو علم يعنى بتتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره"، وله العديد من القضايا أو المباحث التي تندرج تحته مثل الفصل والوصل والتعريف والتنكير، والحذف والذكر، والتقديم والتأخير والإيجاز والأطناب والمساواة وستأتي الأمثلة عليه عند الحديث عن التقديم والتأخير.

وإذا كان علم المعاني يركز على دراسة المعاني النحوية، فإن علم البيان يعني بدراسة الأساليب المختلفة المعبر بها عن المعنى الواحد كما جاء في تعريفه:" هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه". وهو في هذه الدراسة يتناول قضايا عديدة عرفت تحت هذا العلم منها: التشبيه، والاستعارة، والكناية وغيرها.

وقد جاءت عناية هذا العلم بدراسة مثل هذه الأساليب نتيجة لما لوحظ على المبدع أو المتكلم من حرصه على التنويع في أساليب التعبير نظرا لما فيها من قيمة فنية تبدو أبلغ من غيرها من التغيير مثال على ذلك قولهم: في وصف الرجل الشجاع.

- **فلان شجاع.**
- **فلان كالأسد .**
- **فلان أسد.**

فهذه الأساليب الثلاثة تشترك معا في التعبير عن معنى واحد هو الشجاعة ولكنها تتفاوت في قيمتها الفنية، فالتعبير الأول يمثل لغة عادية وهو يدرج ضمن اللغة التقريرية أما التعبيران التاليان فهما يدخلان ضمن اللغة الفنية أو اللغة التصويرية.

أما العلم الأخير في هذه العلوم الثلاثة فهو علم البديع وهو يعني بدراسة المحسنات، ولذلك قيل في تعريفه:"هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام" وهو يركز على دراسة قضايا معينة مثل: السجع، والجناس، والطباق، ويحاول أن يبرز قيمتها في الكلام، ومن الأمثلة على ذلك قول المتنبي:

على قَدْرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ وتأتي على قدرِ الكرامِالمكارمُ.
وتعظمُفي عين الصغيرِ صغارُها وتصغُرُ في عين العظيمِالعظائمُ.

ففي البيت الأول والثاني نجد جناسا ممثلا في الكلمات الآتية: العزم، والعزائم، والكرام، والمكارم، والصغر، وصغار، والعظيم والعظائم، كما نجد طباقا في البيت الثاني ممثلا في الكلمات: تعظم، وتصغر، والصغير والعظيم.

وكل هذه الكلمات ترتبط بالمعنى المعبر عنه، وتعطي له إيقاعا موسيقيا يخلق التكامل بين عناصر الصوت والمعنى وبدراسة هذه العلوم الثلاثة بكل ما يندرج تحتها من قضايا بلاغية تكون البلاغة قد اكتملت على النحو الذي جاءت به عند القدماء. ونحن ندرسها اليوم للتعرف عليها باعتبارها علوما قديمة تقليدية. ورغم قدمها، فإنها مازالت تعرض في مناهج التعليم دون تغيير كبير في محتواها.

6- التـــقديم والتـــــأخير

- تمهيد عن الجملة العربية.

من المعروف أن الجملة العربية تقوم على نسق معين. فالجملة الاسمية يتصدرها المبتدأ، ويليه الخبر، ثم ما تعلق به، والجملة الفعلية تبدأ بالفعل، ثم يأتي الفاعل الخ ولكن أحيانا يحدث أن يطرأ تغيير في بعض مكونات هذه الجملة أو في النسق الذي تقوم عليه، وحين ندرس هذا النسق الجديد للجملة فإننا لا نريد أن ندرسها من الناحية النحوية، وإنما نركز على ما في هذا النسق الجديد من دلالة أو دلالات . والدراسة هنا فنية أو بلاغية تسعى إلى معرفة أسرار ما يحمله التركيب الجديد من معان أو دلالات معينة.

لقد درس القدماء النسق الجديد الذي يطرأ على هذا التركيب وأطلقوا عليه مصطلح (التقديم) ومصطلح (التأخير) فماذا نعنى بهذين المصطلحين؟.

مفهوم التقديم والتأخير:

التقديم هو تبادل في المواقع، حيث تترك الكلمة مكانها في المقدمة لتحل محلها كلمة أخرى لتؤدي غرضا بلاغيا ما كانت لتؤديه لو أنها بقيت في مكانها في نسقها العادي.

هذا هو مفهوم التقديم أما التأخير فهو نقيض التقديم لأن التقديم يستدعي تأخيرا بالضرورة مادام الأمر يتعلق بالتبادل في المواقع بالنسبة للنسق أو التركيب. فالمبتدأ الذي يترك مكانه في المقدمة للخبر يحدث بينهما التقديم والتأخير بالضرورة. والأمر كذلك في التأخير فحينما نقدم ما لا حق له في التقديم نكون قد أحدثنا تغييرا في المواقع، وفي الصلاحيات. وهنا نطرح السؤال التالي: لماذا نقدم ونؤخر في هذا الكلام أو في هذا النسق؟.

الغاية من التقديم والتأخير:

إن الغاية التي يتوخاها التقديم والتأخير مرتبطة بالمتكلم وبالموقف الذي يريد أن يعبر عنه، ويسعى إلى نقله للآخرين، وقد حاول القدماء والمحدثون حصر بعض صور التقديم والتأخير وربطوها بأهداف معينة منها الأهمية، والاختصاص، والتشديد في الوعيد، والتشويق والإثارة الخ.

1- الأهمية:

إن المتكلم أو المبدع حين يقدم كلمة من الكلمات فإنه يفعل ذلك لغاية تتعلق بأهمية المعنى الذي يستأثر باهتمامه. والأمثلة على هذا عديدة، و لضيق المجال نكتفي هنا بمثالين أحدهما من القرآن الكريم والثاني من الشعر. ففي القرآن الكريم نجد

قوله تعالى: فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه، وإن تصبهم سيئة يَطَّيَّروا بموسى ومن معه " سورة الأعراف[131].

فالآية هنا ترتبط بموقف معين هو تصوير الوضع الذي كان عليه قوم موسى (آل فرعون). ويتجلى هذا في حالتين متناقضتين:

الأولى هي الرضا بما مَنّ الله عليهم من الخيرات والنعم ولذلك كانوا يبدون مطمئنين مرتاحين، وهم يقبلون على التمتع بهذه النعم والخيرات بشيء من اللهفة والرغبة في التمسك بها والاستحواذ عليها. و قد كان التعبير مناسبا لهذا في قوله تعالى: " لنا هذه" ولو كان التعبير على هذا النحو "هذه لنا" لما برز المعنى الأول.

الثانية هي التذمر والسخط مما يحل بهم من قحط وجدب. و في هذه الحالة تراهم ينسبون كل ما يحل بهم إلى موسى وأتباعه، ويعبرون عن ذلك بالتطير والنكران له ولأتباعه.

إن الموقف الطبيعي المنتظر منهم هو الرضا بكلتا الحالتين: حالة النعم والخيرات، وحالة القحط والجدب غير أنه لما كان هؤلاء القوم جاحدين وأنانيين فقد حرصت الآية على تصوير هذه المفارقة التي يعيشونها في حياتهم. وكان التقديم والتأخير مجسدا لهذه المفارقة. أما في الشعر فنجد ابن الرومي يقول:

ضلَّةً لامرئٍ يُشَمِّرُ في الجَمْ عِ لِعَيْشٍ مُشَمِّرٍ للفناءِ

دائباً يكنزُ القناطيرَ للوا رِثِ والعُمْرُ دائبٌ في انقضاءِ

فالموقف الذي أراد ابن الرومي أن يعبر عنه هو حرص الإنسان على جمع المال، وحرصه عليه ناتج - في الحقيقية - عن غفلته وقلة حيلته، وقصور نظرته، إذ لو لم تكن لديه غفلة وسذاجة وقلة حيلة لعرف أن حياته قصيرة ومحدودة، وأن المال الذي يجمعه ويحرص عليه لا يستطيع أن يمد في عمره ولذلك كان ابن الرومي يسخر منه ويستنكر فعله معتبرا أن المال ليس هو الغاية الأساسية في الحياة.

إن الأمر هنا يبدو - في نظر ابن الرومي - في شكل مفارقة عجيبة، فمن ناحية نجد هذا الإنسان يحرص كل الحرص على جمع المال، ومن ناحية أخرى نجده يسير إلى الفناء دون أن يتمتع به نظرا لقصر عمره. وقد حرص ابن الرومي على تجسيد هذه المفارقة بتقديم " الحال" (دائبا) على الفعل (يكنز). وكان الأصل أن يقول :(يكنز القناطير دائبا) ولكن هذا التركيب لا يبرز المكانة التي يحتلها المال عند هذا الإنسان كما هو في التركيب السابق.

2- الاختصاص:

يحدث أحيانا أن نجد تعبيرا أو كلاما يعبر فيه المتكلم أو المبدع عن شئ يخصه ولا يشاطره فيه أحد وهو يلجأ في هذا التعبير أو الكلام إلى تقديم كلمة معينة لتجسيد ذلك المعنى. ويمكننا التمثيل هنا بما جاء في القرآن الكريم وفي الإبداع الشعري. ففي القرآن الكريم نجد قوله تعالى: " له الملك وله الحمد وهو على كل شئقدير"سورة التغابن [1].

فالآية هنا جاءت لتعبر عن القدرة الإلهية المطلقة، فالله جلت قدرته هو الذي يملك كل شيء، ولا تشاطره فيه قدرة أخرى. وهو لهذه القدرة المطلقة يستحق كل الحمد وكل الثناء. ولكي يجعل هذه القدرة تخصه هو فقط دون سواه فقد قدم شبه الجملة الممثلة في الجار و المجرور (له) وكان حقها التأخير كما هو مألوف في التعبير على هذا النحو: (الملك له) ولكن هذا النمط من التعبير لا يبرز معنى الاختصاص الذي أشرنا إليه، ولا يعبر عنه بالكيفية التي جاء عليها في التعبير الأول. والأمثلة المعبرة عن هذا المعنى كثيرة في القرآن الكريم منها: قوله تعالى: "يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون"سورة البقرة[3/ 4] .

هذا في القرآن الكريم أما في الإبداع الشعري فالأمثلة كثيرة منها قول الشاعر سليمان العيسى:

لي موطني لا للدخيل ولي بأزهاري عبيريِ

في هذه الجنـــات والأ نهار في وطني الكبيـرِ

فالشاعر أراد أن يعبر عن حبه لوطنه، وعن تعلقه به، وأنه شيء يخصه هو ولا يشاطره فيه أي دخيل. ولكي يبرز أن هذا الوطن له وحده لا لغيره قدم شبه الجملة الممثلة في الجار والمجرور(لي) وكان حقها التأخير بحكم الموقع الذي تأتي فيه باعتبارها خبرا للمبتدأ وهو(موطني) ولكن ترتيبها على النحو التالي:(موطني لي) لا يجسد المعنى الذي أراده الشاعر. وما قيل (لي موطني) يقال في (لي بأزهار عبير) وهكذا.

3-التشديد في الوعيد:

يأتي التقديم والتأخير في بعض النصوص الأدبية لغاية تتعلق بالتشديد في الوعيد. ولدينا أمثلة كثيرة تؤكد هذا الاستخدام في القرآن الكريم وفي الإبداع الشعري. ومما جاء عنه في القرآن الكريم قوله تعالى:" إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم". الغاشية [26/25].

فالموقف الذي أراد تعالى أن يعبر عنه في هذه الآية هو التهديد والتشديد في الوعيد، إذ يقول:إن إيابهم لا يكون إلا إليه هو الواحد الأحد وكذلك فإن حسابهم يعود إليه وحده وليس هناك من يستطيع أن يحاسب عباده إلا هو القادر المقتدر. ولإبراز هذا المعنى قدم الجار والمجرور شبه الجملة (إلينا) مرتين وكان حقه التأخير في محل رفع خبر(إن). ولو أبقى التركيب الأول وهو: "إن إيابهم إلينا ثم إن حسابهم علينا" لما برز معنى التهديد والتشديد في الوعيد كما هو واضح في التركيب السابق.

إن التعديل في التركيب يشير إلى أن لكل تركيب معنى يتطلبه مقتضى الحال ويستدعيه الموقف، وبقدر ما يتعدد التقديم والتأخير تتعدد المعاني. وقد رأينا في الأمثلة السابقة كيف أن التقديم والتأخير كان فيها لأهداف تتعلق إما بالأهمية أو بالاختصاص أما هنا فقد جاء بغرض التهديد والتشديد في الوعيد. ومن الأمثلة التي يمكن الاستدلال بها في الشعر قول أحدهم:

إلى كلِّ طاغٍ يمس الحدودَسنمضى ونحن الأسودُ الجياعْ

فالشاعر هنا يوجه تهديده إلى كل طاغ تسول له نفسه بالاعتداء على حرمة وطنه، ونراه قد استخدم أسلوب التقديم والتأخير لإبراز هذا المعنى، حيث كان يجب أن يقول في التركيب العادي المألوف: (سنمضي إلى كل طاغ...).ولكنه عدل عن هذا التعبير لأنه أراد التهديد والتشديد في الوعيد بالانتقام إن أقدم المعتدي على المساس بكرامة وطنه، فقدم شبه الجملة(إلى كل طاغ) لتكون ملفتة أكثر وأخَّر في الآن نفسه كلمة (سنمضي) التي كان حقها التقديم. و من الواضح أن التعبير بالتقديم والتأخير أبلغ وأقوى في إبراز المعنى من التعبير المألوف. والأمثلة عليه كثيرة ولا ضرورة لإيرادها هنا لأنها من قبيل التكرار.

4- التشويق إلى المتأخر:

من الأمثلة التي وردت عنه في الشعر والنثر ما سيأتي. ففي النثر نجد أبا طالب قد تقدم يطلب يد خديجة لابن أخيه محمد (ص) فقال:

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما، وبيتا محجوجا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا، وفضلا، وعقلا، ومجدا، ونبلا، وإن كان في المال قُلٌّ فالمال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعليَّ.

ففي هذه الخطبة نجد أنفسنا أمام نوع آخر من التقديم والتأخير ليس في جزء من أجزاء الجملة، وإنما هو في عرض الموضوع فأبو طالب يطلب يد السيدة خديجة

إلى ابن أخيه محمد عليه السلام، ولكنه لا يدخل في الموضوع مباشرة، ولا يواجه بالفكرة، بل يتأتى لها، حتى يقتنع بها، لأنه يعلم فيما يعلم أن خديجة من شريفات قريش، وأن لها من الثراء ما ليس لغيرها، وأنها أمنية كثير من سراة القرشيين . ونلاحظ أنه بدأ يتحدث عن نسب بني هاشم آل محمد؛ فإذا هو خير نسب؛ لأنهم من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وانتقل إلى منزلتهم في مكة، فإذا هي خير منزلة؛ لأنهم سدنة الكعبة، والقائمون بأمر البيت الحرام ولهم الحكم في الناس، ثم تحدث عن محمد؛ فإذا هو خير فتى في قريش، لأنه ليس من فتيانها من يساويه في بره أو فضله أو كرمه أو عقله أو مجده أو نبله وإذ بلغ من نفوس السامعين اعتذر عن قلة ماله بأن المال ظل زائل، يكون حينا، ولا يكون حينا آخر ثم عرض بعد ذلك كله موضوع الخطبة.

ولا شك في أن جمال هذا التقديم نابع من اقترانه بشعور أبي طالب، ومن تقديره للموقف، ومن انتقالاته التي أمتلك بها السيطرة على النفوس، فكان له ما أراد.

ومثلما يكون هذا التقديم في عرض الموضوع النثري، فإنه يكون أيضا في عرض الموضوع الشعري، كما في أبيات الفيتوري التالية:

إنْ نْكن سرنا على الشوك سنينا	ولقينا من أذاه ما لقيـــــنـــا
إن نكن بتنا عـراةً جـائعـيـنا	أو نكنْ عشنا حفاةً بائسـينا
إن نكن قد أَوْهَتِ الفأسُ قُوانـــا	فوقفنا نتحدى الساقطــينـا
إن نكن سخَّـرنـا جــــلادُنـــا	فبنينا لأمانينا ســــجونـــا
ورفــعناه عــــلى أعـــناقـــنــا	ولثمنا قدميه خاشعيـــنـــا
ومـــلأنا كـــأسَه من دمـــنـــا	فتساقانا جراحـا وأنيــــنا
وجعلنا حَجَرَ القَصْرِ رؤوســـاً	ونقشناه جفونـا وعيـــونـــا
فلـــقد ثـُرنا على أنفســـــنا	ومَحَوْنَا وَصْمَةَ الذِّلَّةِ فيــنا.

ففي هذه الأبيات يعرض الشاعر فظائع الاستعمار في صور تتوالى كما تتوالى صور المأساة حزينة دامية. فقد سار أهل إفريقية دهرا بين أشواك الحياة بعبوديتها وذلتها وحرمانها وقاسوا الآلام منها وكان ليلهم للعرى والجوع ونهارهم للبؤس والحفاء، وكانت الفأس التي يضربون بها الأرض في خدمة جلادهم ، توهي قواهم، ومع ذلك لا يلقونها من أيديهم.

كان هذا الجلاد يسخرهم فيخضعون له. وقد انطووا على نفوسهم، وقبروا فيها أمانيها. كانوا يمجدون هذا الجلاد، فيحملونه على الأعناق، ويخرون له خاشعين

ليلثموا أقدامه. كانوا يقدمون له الدماء ليملأ منها كأسه، ويحتسيها مستمتعا بأنينهم وجراحهم. بنوا له قصرا من جماجمهم، وجعلوا نقشه من عيونهم وأجفانهم.

كان ذلك كله، وقد تحملوه. و نلاحظ هنا أن الشاعر حرص على أن يقدم هذه المآسي في هذا العرض الذي توالى فيه الشرط في الأبيات حتى البيت ما قبل الأخير ولا جواب له. وفي البيت الأخير يظهر الجواب بعد كل ما تقدم على هذا النحو:

لقد ثاروا على الضعف في نفوسهم، وحطموا بهذه الثورة ما كانوا فيه من ذلة وهوان. وقد لجأ الشاعر إلى هذا الأسلوب الذي أخَّر فيه الجواب ليعرض جرائم المستعمرين متتابعة، تستثير القارئ، وتدفعه إلى مشاركة الشاعر في السخط عليهم.. حتى إذا انتهى إلى آخر الأبيات أحسست إشراقة الأمل بما ذكر عن الثورة التي قضت على الضعف في النفوس، وعلى ما كان من ذلة ومهانة.

والتقديم يرد كذلك في القصة، فكثيرا ما يقدم الكاتب بعض أجزائها لغرض فني يتمثل في التشويق والإثارة ثم يواصل أحداث القصة.

7- الحـقيقــة والمجــــاز

- الحقيقة والمجاز:

تمهيد: طبيعة التعبير باللغة.

حين نعبر بلغة واضحة ومفهومة عن بعض معانينا أو عما يجول بخاطرنا ونرغب في توصيل ذلك إلى المستمع أو التلقي فإننا نسلك سبيلين في التعامل مع اللغة.

أولهما أن اللغة التي نستخدمها في وضعها العادي أو فيها يعرف بالاستعمال المألوف تعتبر لغة مباشرة وتوصف بأنها لغة وظيفية نفعية، وهي في الغالب ليس فيها تلك المظاهر الفنية.

ثانيهما تلك اللغة الفنية أو اللغة التي يتم من خلالها الخروج عما هو مألوف فيها سواء في مفرداتها أم في تراكيبها وأساليبها ويعبر عن هذه اللغة بالانزياح أو التوسع في الاستعمال وهو يدخل في إطار الكتابة الفنية أو الأدبية.

في الحالة الأولى تكون اللغة حقيقية. بمعنى أنها تمثل درجة معينة في الاستعمال اللغوي الذي يكون ناجما عن المواضعة الاجتماعية. أما في الحالة الثانية فإنها تكون(مجازية) بمعنى أنها تمثل دلالة مفارقة للأولى، ويتوقف فهمها على الاستعمال الأول. ولتوضيح هذا سوف نعرض بعض التعاريف التي قدمها بعض اللغويين والبلاغيين للحقيقة والمجاز:

1- مفهوم الحقيقة:

أ- المفهوم اللغوي:

لقد حاول اللغويون والبلاغيون من القدماء والمعاصرين أن يقدموا مقاربة لمفهوم الحقيقة، وكانت خلاصة ما قدموه أن الحقيقة تعني(الثبات) على وجه العموم بمعنى ثبات الشيء أو ثبات الصفة الملازمة له، وهي بصيغة فعيل بمعنى فاعل من حقَّ الشيء إذا ثَبَتَ أو بصيغة مفعول من حققت الشيء إذا أثبتُّه. ففي الصيغة الأولى وهي فعيل بمعنى فاعل أن الشيء فيها ثابت، وفي الصيغة الثانية الشيء فيها مُثبَّت ومرسخ.

ب- المفهوم الاصطلاحي:

ومثلما حاول اللغويون والبلاغيون أن يقدموا مفهوما لغويا للحقيقة فقد حاولوا أيضا أن يقدموا لها تعريفا اصطلاحيا.وقد كان في ذلك العديد من الاجتهادات،ولكن مجمل ما توصلوا إليه- رغم ما يبدو على هذه الاجتهادات من خلاف- يتلخص في أنها"الكلمة المستعملة فيما وُضِعَتْ له في اصطلاح التخاطب"أوهي"الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع مثال على ذلك لفظ الأسد موضوع له بالتحقيق ولا تأويل فيه".

ويبدو لنا من المفهوم اللغوي والاصطلاحي السابق أن الكلمة قد انتقلت من المعنى العام إلى الخاص ويتمثل ذلك في إطلاقها أول الأمر على الثبات وإطلاقها في الثاني على الكلمة المستعملة في غير ما وُضِعَتْ له، وهذا هو شأن كثير من الكلمات التي تنقل من العام إلى الخاص عندما تكتسب معنى اصطلاحيا خاصا.

2- مفهوم المجاز:

أ- المفهوم اللغوي:

يطلق المجاز في اللغة على الموضع الذي يتم اجتيازه وفي هذا يقول الأصمعي: جزت الموضع سرت فيه، وأجزته قطعته وأجزته نفذته.

ب- المفهوم الاصطلاحي:

أما المفهوم الاصطلاحي،فقد نقل من معناه اللغوي السابق على سبيل المشابهة لإطلاقه على كل كلمة استخدمت في غير ما وضعت له أصلا مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأول.

ذلك هو ملخص مفهوم المجاز،وقد اقتصرنا فيه على ما هو واضح ومشهور،ومن أراد الاستزادة في ذلك فإن المصادر القديمة في اللغة والأدب والنقد متاحة ويمكن الرجوع إليها مثل:(مجاز القرآن)لأبي عبيدة معمر بن المثنى(ت213هـ)و(تأويل مشكل القرآن)لابن قتيبة(ت276هـ)و(الخصائص)لابن جني(ت392هـ)و(المثل السائر)لابن الأثير(ت637هـ)و(دلائل الإعجاز)و(أسرار البلاغة)لعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)وغيرها.

هذا في التراث القديم أما في الحديث فإن الكتب والبحوث التي تناولت المجاز لا يكاد يشملها الحصر لكثرتها وتنوعها، وكثير منها اتخذ منحىً فلسفيا ذا طابع لغوي، كما في كتاب:(فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث)لصاحبه: لطفي عبد البديع،وذلك لغرض تعميق الوعي بقضية المجاز،والإفاضة في توضيح أبعاده الدلالية في ضوء مستجدات العصر.

والمتأمل في المفهوم السابق للحقيقة والمجاز يمكنه في شيء من اليسر أن يدرك أن الحقيقة والمجاز يرتبطان ببعضهما، من حيث إنهما يمثلان معا علاقة مزدوجة تعكس ذلك التصور الثنائي الضدي الذي يحدث بصفة طبيعية في اللغة.

فكلمة الحقيقة تمثل الأصل أي أصل المعنى عندما يتم التواضع عليه فيما بين الناس، أما في المجاز فتمثل ذلك المعنى الذي اكتسبته من الاستخدام الجديد لها وهو نقيض ذلك المعنى ولذلك قال ابن منظور في معجمه(لسان العرب)عند الموازنة بينهما:" الحقيقة في اللغة ما أُقِرَّ في الاستعمال على أصل وضعه والمجاز ما كان بضد ذلك" ولهذا السبب اعتبر المجاز نقلا أو تحولا في المعنى والأساس فيه أنه يأتي ليسد ذلك العجز في اللغة، ويقوي قدرتها التعبيرية. وهو يعد ظاهرة عامة في جميع اللغات،وقد أدرك هذه الحقيقة ابن جني بقوله:"اعلم أن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة".

وعلى العموم فإن قضية المجاز تعد قضية محورية في البحث اللغوي ولذلك حظيت ومازالت تحظى بالاهتمام. وإذا كانت اللغة العلمية ذات بعد دلالي واحد وهي لا تقبل التأويل لأنها تهدف إلى التعبير عن دلالة محددة ودقيقة، فإن الأساس في اللغة الأدبية أو اللغة الفنية هو المجاز أو التعبير غير المباشر كما

أشرنا من قبل. ونحن نحتاج في حياتنا إلى اللغة العلمية كما نحتاج إلى اللغة الفنية ولا مفاضلة بينهما إلا من حيث الفائدة التي نجنيها من كل منهما في المجال الذي تختص به.

على أنه من الثابت في كلتا الحالتين أن اللغة بطبيعتها تنمو وتتطور ويعتبر المجاز من بين الآليات التي تساعد على هذا النمو والتطور ولذلك فإن ما نعتبره اليوم مجازا يصبح بعد حين حقيقة. وهكذا لأن اللغة تحيا بالاستعمال ويخضع هذا الاستعمال لكثير من التغيرات والتحولات بفعل العوامل المؤثرة فيه.

- أنواع المجاز:

قسم علماء اللغة والبلاغة المجاز قسمين كبيرين:

الأول أطلق عليه المجاز اللغوي والثاني أطلق عليه المجاز العقلي:

1- المجاز اللغوي هو - كما سبق القول- استعمال الكلمة في غير معناها الحقيقي مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، وله وجهان:

أ- المجاز الاستعاري.

ب- المجاز المرسل.

فالمجاز الاستعاري تكون العلاقة فيه قائمة على المشابهة أي وجود مشبه ومشبه به على نحو ما جاء في البيت التالي لأبي نواس:

تبكي فتدري الدُّرَ من نَرْ جس وتلطم الوردَ بعُنَّابِ

ففي هذا البيت أربع استعارات هي كالآتي:

- الـــــدر: بمعنى الدموع.
- النرجس: بمعنى العيون.
- الـــورد: بمعنى الخدود.
- العناب: بمعنى أطراف الأصابع أو الأنامل الملونة بالأحمر.

فهذه الاستعارات الأربع أساسها التشبيه بمعنى أنها قبل أن تصبح استعارة كانت تشبيها ولذلك قيل إن العلاقة بين المعنيين تكون قائمة على المشابهة.

أما المجاز المرسل فتكون العلاقة فيه قائمة على غير المشابهة بين المعنيين، وقد سمي مرسلا لأنه غير مقيد بعلاقة المشابهة كما في الأول وله جملة من العلاقات يظهر من خلالها منها الجزئية كما جاء في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: " مات حتف أنفه" والمعنى أن الموت كانت طبيعية، ولكنها جاءت من الأنف وهو يمثل الجزء في الميت. ويعني هذا إطلاق الجزء على الكل،وهو تعبير شائع في اللغة العربية، ويمكن ملاحظة مثله في شكل علاقات عديدة كما في الآتي:

1- السببية.
2- المسببية.

3- الجزئية.
4- الكلية.
5- الماضوية.
6- المستقبلية.
7- المحلية.
8- الحالية.
9- الآلية.
10- المجاورة.

وبالإمكان التعرف على الأمثلة التوضيحية لها في التطبيق لأن شرحها يطول في هذا المقام.

2- المجاز العقلي:

يتأسس هذا المجاز على الإسناد أي إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غيرها ما هو له مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي. وقد سمي كذلك لإسناده إلى العقل دون الوضع ويسميه بعض البلاغيين المجاز(الحُكْمي) نسبة إلى الحكم عليه بالعقل أي بالتأول العقلي كما يسمى أيضا (الإسناد المجازي) ومثاله في قولنا:" بنى الوزير الجامعة".فالمقصود بهذا التعبير ليس الوزير هو الذي بنى الجامعة؛ لأن هذا العمل لا يقبله العقل، وإنما المقصود أن رجاله وعماله هم الذين قاموا به. والمجاز هنا يتجلى في الإسناد أي إسناد العمل إلى غير صاحبه. وهذا الإسناد من عمل العقل ولذلك سمي (المجاز العقلي). ونجد مثل هذا في قوله تعالى في سورة الحاقة21(عيشة راضية) فالملاحظ هنا أن العيشة وُصِفَتْ بأنها راضية ويقصد بها مرضية، وقد استخدم اسم الفاعل للدلالة على اسم المفعول، ولو أبقينا التعبير الأول وهو (راضية) لما استقام المعنى لأن العيشة ليست هي التي ترضى وإنما مرضيٌّ عنها بمعنى أن الناس هم الذين يشعرون بالرضا فيها, والأمثلة على هذا النوع من المجاز كثيرة وشائعة، ويمكن أن يلاحظ في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وكلام العرب من الشعر والنثر في ضوء العلاقات التالية:

1- السببية.
2- الزمانية.
3- المكانية.
4- المصدرية.
5- الفاعلية.
6- المفعولية.

وتحتاج هذه العلاقات إلى كثير من الأمثلة لتوضيحها. والمقام هنا لا يتسع لذلك. والتطبيق هو من يتولى هذه المهمة.

8-الصـــورة الفنيـــة

- الصورة الفنية:

تمهيد: تطور دراسة الصورة الفنية:

لقد جرت العادة في دراسة قضايا التشبيه والاستعارة والكناية تحت (علم البيان) أما الدراسة النقدية المعاصرة فهي تدرسها تحت عنوان(الصورة الفنية) أو (الصورة الشعرية). والهدف من هذه الدراسة هو التجديد في الرؤية، ومحاولة تجاوز الطريقة النمطية المألوفة في المعالجة وذلك لغرض تعميق الفهم للتشبيه والاستعارة والكناية بإدراجها تحت موضوع الصورة ولهذا كانت الدراسات المعالجة لهذه الموضوع كثيرة ومتنوعة سواء بالعودة فيها إلى تجديد الرؤية في الدراسات القديمة أم في الدراسات المعاصرة، فمن الدراسات التي حاولت التجديد في الرؤية للتراث ما يلي:

- الصورة الفنية للتراث البلاغي والنقدي. للدكتور: جـــابر عصفور.
- الصورة الأدبية للدكتور: مصطفى ناصف.
- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري للدكتور:علي البطل.
- الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس الدكتور: ساسين عساف.

وقد استفادت هذه الدراسات من التوجه الحديث والمعاصر في دراسة الصورة الشعرية أو الصورة الفنية عند الغربيين. وتمت هذه الاستفادة عن طريق الترجمات التي تمت فيها أو عن طريق القراءة المباشرة في لغتها الأصلية.

وللإشارة هنا فإن دراسة الصورة الفنية وقضاياها بالطرق التقليدية لم تعد مقبولة اليوم بعد التطور الذي حدث فيها.

- مفهوم الصورة:

يقصد بالصورة في معناها البسيط: تجسيم الشيء بشكل عام لجعله قابلا للرؤية المباشرة الملموسة.وهي تتم إما بنقل صورة حسية إلى صورة معنوية أو نقل صورة معنوية إلى صورة حسية،وفي كلتا الحالتين تكون قائمة على مقارنة شيء بشيء آخر.وتعد هذه المقارنة من صميم ما يعالج اليوم في إطار التشبيه واضربه، والاستعارة وأنواعها، والكناية وأساليبها. ولهذا قال بعض النقاد في بيان أهمية الصورة في ضوء هذا التصور الشامل:"الصورة هي جوهر التعبير الجمالي، وقِوَامُ اللغة الفنية". والصورة بهذا المعنى، والقيمة كثيرا ما ارتبطت بالخيال بل هي الخيال ذاته كما هي عند (رتشاردز) في كتابه(مبادئ النقد الأدبي) حيث درس تحت باب الخيال كلا من الاستعارة والتشبيه وغيرهما، وهو ما يدرس الآن تحت عنوان الصورة الفنية ومما يؤكد هذا قوله وهو يحاول تحديد مفهوم الخيال:

" غالبا لا يقصد بالخيال أكثر من استخدام لغة المجاز فيقال عن الناس الذين يستخدمون بطبعهم الاستعارة والتشبيه ولا سيما إذا كانت الاستعارة والتشبيه من نوع غير مألوف، يقال عنهم إنهم تتوفر لديهم ملكة الخيال"ص(309) .

وفي ضوء هذا التصور الشامل للصورة يمكن الاقتراب من معالجة القضايا البلاغية المشار إليها، غير أننا سنلتزم بعرضها على النحو الذي ذكرناه، ولا نغير إلا ما يفرضه سياق الشرح والتحليل.

-التشبيه وعناصره:

التشبيه في معناه العام هو المقارنة، فأنت حين تشبه فإنك تقارن أما في معناه الفني الخاص أو الاصطلاحي فيقصد به الوصف غير المباشر،ويتضمن هذا الوصف المقارنة حتى لو كانت هذه المقارنة خفية،وغير مباشرة، ويتدخل في عملية الوصف أربعة أطراف هي:

- المشبه.

- المشبه به.

- وجه التشبيه.

- أداة التشبيه.

هذه هي العناصر المطلوبة في التشبيه أو في الصورة الفنية القائمة على التشبيه مثال على هذا قولنا: (فلان كالأسد) فكلمة(فلان) مشبه، والأسد مشبه به، والكاف أداة التشبيه ووجه الشبه هو(الشجاعة)ذلك أن التعبير في قولنا: فلان شجاع، يعكس شيئا من الحقيقة في الواقع، ولكن حين نقول: (فلان كالأسد)، فإننا نقلناه من صورة عادية إلى صورة فنية زادت المعنى قوة وتأكيدا بحيث لم يعد هناك أثر للشك في شجاعته، وهي شجاعة تشبه شجاعة الأسد. ويمكن أن نزيد في تقوية المعنى،أو تقوية الصورة بحذف بعض العناصر في التشبيه مثل القول:(فلان أسد)،حيث تمت تسوية فلان بالأسد مثل ما نقول(أ)يساوي(ب)وبهذا تم الارتقاء بالصورة التشبيهية من معنى المقارنة إلى معنى المطابقة، وهي صورة خيالية أساسها المجاز. والاستعارة مجاز كما أوضحنا من قبل عند حديثنا عن المجاز.

ومن هذا يتبين لنا أن التشبيه لا يتطلب دائما كل العناصر الأربعة عند الحديث عن الصورة، ويدرك القارئ هذا الأمر عند إمعانه في الكلام.

- صور التشبيه:

للتشبيه صور عديدة رصدها البلاغيون والنقاد القدماء وغيرهم من الدارسين منها:

1- التشبيه المفرد.

2- التشبيه المركب.

3- التشبيه الضمني.

1- فالتشبيه المفرد هو الذي يتم فيه تشبيه مفرد بمفرد أو صفة بصفة واحدة ومثاله على النحو الذي تقدم وهو:فلان كالأسد،وكما في حديث الرسول (صلعم) الذي قال فيه:"الناس سواسية كأسنان المشط".

فعناصر التشبيه في هذين المثالين أربعة هي:المشبه،والمشبه به،وأداة التشبيه، ووجه الشبه، وقد تقدم الحديث عنها ولا ضرورة لإعادته هنا.

2- التشبيه المركب ويعبر عنه أحيانا بالمتعدد وهو الذي يحتوي على عدد من التشبيهات ومثاله في قول أمريء القيس:

فَعَنَّ لنا سِرْبٌ كأن نِعَاجَهُ عَذَارى دَوَارٍ في مُلاءٍ مُذَيـلِ

فامرؤ القيس يصف سربا من بقر الوحش بيض الظهور، سود القوائم، تدور حول رائدها، فأعجبه منظرها وحركتها ومشيتها الهادئة، فشبهها بفتيات حسان يطفن بالصنم(دَوَار)في ملاءاتهن البيض المذيلة بالسود، والمشبه كما ترى ليس مفردا، ولكنه صورة مركبة والمشبه به كذلك ليس مفردا وإنما صورة مركبة.

3- التشبيه الضمني:

هذا التشبيه يكون غير صريح ولذلك سمي ضمنيا لأنه لا يأتي في صورة واضحة، وإنما يفهم من الكلام، وهو يعتمد أكثر ما يعتمد على ذكاء القارئ أو المستمع وعلى ثقافته ومثاله في قول المتنبي:

مَنْ يَهُنْ يسهلُ الهوانُ عليه مَـــا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيَـــلاَمُ.

فالمتنبي يشبه الشخص الذي يقبل الذل مرة ومرة حتى تهون عليه كرامته، ولا يتأثر لما يمسه بميت يجرح جثمانه فلا يؤثر ذلك فيه، ولكن التشبيه في البيت غير صريح ولم يأت في صورة ظاهرة ومثل هذا نجده أيضا في قول أبي فراس الحمداني:

تَهونُ علَيْنْاَ في المعالي نُفُوسُناَ ومن خطب الحساءَ لم يُغْلِها المَهْرُ

فأبو فراس يشبه، في هذا البيت، حالهم في طلب المعالي واسترخاص كل شيء في سبيلها حتى النفوس، بحال من يخطب الحسناء فلا يضن عليها بزيادة المهر بالغا ما بلغ، ولكن هذا التشبيه غير صريح،وإنما يُلْمَحُ من الكلام.

هذا هو مجمل ما قيل في التشبيه وصوره ومنه ننتقل إلى الحديث عن الاستعارة باعتبارها - كما سبق القول- لونا من ألوان التعبير بالصورة.

مفهوم الاستعارة:

في حديثنا هنا عن مفهوم الاستعارة لا نريد أن نعيد ما سبق أن قلناه عنها أثناء حديثنا عن المجاز.وإذا كان المجاز نوعا من النقل، فالاستعارة هي أيضا نقل. وعلى هذا يمكن القول إن الاستعارة هي مجاز لأنه يتم فيها نقل اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى جديد عن طريق التشبيه أو عن طريق المقارنة بين شيئين في صفة من الصفات مثال على ذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم آية(1):

" كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور"

فكلمة (الظلمات) وكذلك (النور) ليس المقصود بهما الظلمات الحقيقية ولا النور الحقيقي، وإنما المقصود بهما ما في الكفر من ضلال، لأن هذا الضلال فيه من الخبط والخطأ والاضطراب ما في الظلمات، كما أن النور مقصود به الإيمان لما فيه من وضوح الرؤية والسداد والاطمئنان.

وهكذا استعارت الآية الكريمة الظلمات للكفر والضلال والنور للهدى والإيمان.

ويمكن أن نجد مثل هذا في الشعر كما في قول الحطيئة يستعطف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وكان قد ألقاه في السجن لهجائه المقذع:

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مرخٍ زُغْبِ الحواصلِ لأماءٌ ولا شجرُ

ألقيتَ كاسبَهم في قعرٍ مظلمةٍ فاغفر عليك سلامُ الله يا عمرُ.

فهو لم يقل:"ماذا تقول لأطفال صغار بغير قوت ولا ماء؟ بل قال: ماذا تقول لأفراخ...؟ فعبر عن الأطفال بالأفراخ واستمر في الصورة فوصف الأفراخ بأن حواصلها لم يزل عليها الريش الأصفر،ومع ذلك لا تجد ما تأكل وما تشرب، وفي هذا اللون من التعبير- كما ترى-استعارة لأنه استعار لفظة الأفراخ لأطفاله الصغار.

نهاية.

مع التمنيات بالتوفيق.